Black plate (41,1)

كتاب

أثر العلماء

في توعية المجتمعات الإسلامية

Black plate (43,1)

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين، أما بعد:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ﴿١﴾﴾ [النساء: ١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ﴿٧٠﴾ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

وبعد: فإن العلم من المصالح الضرورية التي تقوم عليها حياة الأمة بمجموعها وآحادها فلا يستقيم نظام الحياة مع الإخلال بها بحيث لو فاتت تلك المصالح الضرورية لآلت حال الأمة إلى الفساد ولحادت عن الطريق الذي أراده لها الشارع، ولذا جاء الحث على العلم والاهتمام به والترغيب في طلبه في نصوص كثيرة متضافرة، قال تعالى: ﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ﴾ [المجادلة: ١١]، وقال ﷺ: «**من يرد الله به خيراً يفقه في الدين**»[1] ولعل سن الشباب هي خير ما يؤهل فيه الشاب لطلب العلم، وقد

(١) رواه البخاري، كتاب العلم ١/ ١٢٥ رقم (٦٩) ومسلم، كتاب الزكاة ٥/ ٢٤١ رقم (١٧٢١).

Black plate (44,1)

يعجز عن إدراك الشيء بعد ما تتقدم به السن لكثرة العوارض والمشاغل وصدق الحسن رحمه الله: إذ يقول: «طلب العلم في الصغر كالنقش على الحجر».

وقال علقمة رضي الله عنه: «أمَّا ما حفظت وأنا شاب فكأني أنظر إليه في قرطاسته أو ورقه».

وأوصى لقمان ابنه قائلاً: «يا بني جالس العلماء وزاحمهم بركبتيك فإن الله يحيي القلوب بالحكمة كما يحيي الأرض الميتة بوابل السماء».

وقال الشاعر:

نعم المؤانس والجليس كتاب ... تخلو به إن ملَّك الأصحاب
لا مفشياً سراً ولا متكبراً ... وتفاد منه حكمة وصواب

وقال آخر:

واعلم بأن العلم أرفع رتبةً ... وأجل مكتسب وأسنى مفخر
فاسلك سبيل المقتنين له تسد ... إن السيادة تقتنى بالدفتر
والعالم المدعو حبراً إنما ... سماه باسم الحبر حمل المحبر
وبضَّمر الأقلام يبلغ أهلها ... ما ليس يبلغ بالجياد الضُمَّر

وقال ابن الجوزي رحمه الله: «لما كان العلم أشرف الأشياء لم يحصَّل إلا بالتعب والسهر والتكرار، وهجر اللذات والراحة».

ولا بد من الأدب مع العلماء واحترامهم وبيان محاسنهم؛ فهم الشموع المضيئة، والأعلام الهادية، والأدلاء على الخير.

هم بحر الأمة الدافق، وقلبها النابض، وبلسمها الشافي، هم أهل الصلاح والتقى، أهل الطاعة والعبادة.

وما أحقر بعض الأقزام من أهل الأهواء الذين لا يعرفون للعلماء قدرهم، فيغمزونهم، ويلمزونهم، ويتطاولون عليهم، وما علم هؤلاء أنهم يطعنون الأمة في أعز ما تملك، بل في رصيدها الحقيقي وهم العلماء الذين يعتبر تقديرهم واحترامهم والأدب معهم من صميم ولوازم عقيدة المسلم، ونحن مأمورون حال الاختلاف بالالتفاف حول الكتاب والسنة والرجوع إلى

Black plate (45,1)

العلماء الربانيين الذين ينهلون من معين الوحيين، وكلّما ابتعد الشباب عن علمائهم تقاذفتهم الأهواء، وفرّقتهم الولاءات والانتماءات، وابتعدوا عن الصراط المستقيم الذي ندعو الله صباح مساء أن يهدينا إليه ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ [الفاتحة: ٦، ٧].

فالواجب علينا تجاه علمائنا ـ وهم تاج علماء الأمة الإسلامية في هذا الزمان ـ أن نَصْدُر عن أقوالهم ولا سيما في قضايا الأمة العامة وما يهمها في أمر دينها ودنياها، ولا سيما ونحن نرى مؤامرات الأعداء تحيط بنا من كل حدب وصوب، كل همهم تفريق صف الأمة، وتوهين قوتها، والسعي لإبعاد الشباب عن علمائهم.

وما ضلت أمَّة أعلت قدر علمائها، وتمسكت بمنهجهم، وجعلتهم في مقدمة الركب يقودون سفينة المجتمع إلى شاطىء السلامة لئلا تعصف بها رياح الأهواء والاختلافات التي مزقت الأمة وأضعفتها، وجعلت ولاءها لغير الله ورسوله والمؤمنين.

ووصيتي لنفسي والناس عامة والشباب خاصة أن يلتزموا بأدب الإسلام في انتقاء أطايب الكلام، واجتناب الجرح والسب، والإيذاء بالغمز والهمز واللمز.

وخير ما يعين على ذلك سلوك طريق العلماء الموثوقين الذين لهم قدم راسخة في العلم وهم في بلاد الحرمين تاج علماء الزمان، فليلزم الشاب غرزهم، وليسلم من طرائق الأهواء، ومزالق الشيطان، ومضلات الفتن، ويبتعد عن الولاء لغير الله ورسوله والمؤمنين.

والحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

المؤلف
عبد الله بن محمد بن أحمد الطيار
الزلفي: ٨/ ١١/ ١٤٢٧هـ
ص. ب: ١٨٨ ـ الرمز البريدي: ١١٩٣٢

Black plate (47,1)

شريعة الإسلام

المتتبع لنصوص الكتاب والسنة المطهرة واجتهادات علماء المسلمين العباقرة المتمثلة في كتب الفقه الإسلامي وغيرها يجد مصداق ذلك واضحاً جلياً، والأخلاق الإسلامية جاءت كذلك كاملة شاملة حيث أنها لم تدع جانباً من جوانب الحياة الإنسانية جسمية أو روحية دينية أو دنيوية، عقلية أو عاطفية، فردية أو اجتماعية إلا رسمت له المنهج الأمثل في السلوك الرفيع، ووضعت له الدستور القويم الذي يحقق إنسانية الإنسان في أتم وأكمل صورها.

وإذا أردنا أن نجمع صورة كاملة لذلك فعلينا بالنظر في مصدري الإسلام العظيمين كتاب الله ﷻ وسنة رسوله ﷺ، وفي علاقة الإنسان بالكون والحياة، وفي علاقته بنفسه جسماً أو روحاً أو عقلاً أو ضميراً أو وجداناً وإحساساً، وفي علاقته بأسرته أباً أو أماً، أو ابناً أو أخاً أو زوجاً، وفي علاقته بأنظمة الحياة الاقتصادية، أو الاجتماعية، أو السياسية أو الدينية، في ذلك كله وفي غيره من حالات الإنسان نجد التشريع الأخلاقي في الإسلام الحنيف قد رسم الطريق في وضوح وشمول.

لقد شاء الله ﷻ للدين الإسلامي الحنيف أن يكون منهجاً إلهياً ربانياً كاملاً شاملاً، عاماً خالداً إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها شاء ﷻ أن تكون هداية الله ﷻ للناس كافة.

من كل الأمم ومن كل الطبقات، ومن كل الأفراد، ومن كل الأجيال.

ولقد أفاض العلماء قديماً وحديثاً في وصف الإسلام الحنيف بصفات الجلال والكمال لما بهرتهم أنوار عظمته، وغمرتهم بحار علمه وهدايته وقدسيته، وحسبنا هنا إيراد بعض ما قاله عَلَمٌ من هؤلاء الأعلام وهو الإمام

Black plate (48,1)

ابن القيم ـ عليه رحمة الله ـ حيث يقول في وصف الشريعة الإسلامية: «فإن الشريعة معناها وأساسها على الحِكَم ومصالح العباد في المعاش والمعاد، وهي عدلٌ كلها، ورحمةٌ كلها، ومصالحٌ كلها، وحكمةٌ كلها، فكل مسألة خرجت من العدل إلى الجور، وعن الرحمة إلى ضدها، وعن المصلحة إلى المفسدة، وعن الحكمة إلى العبث، فليست من الشريعة وإن أدخلت فيها بالتأويل، فالشريعة عدل الله بين عباده ورحمته بين خلقه، وظلّه في أرضه، وحكمته الدالة عليه، وعلى صدق رسوله ﷺ أتم دلالة وأصدقها، وهي نوره الذي به أبصر المبصرون، وهُداه الذي به اهتدى المهتدون، وشفاؤه التام الذي به دواء كل عليل، وطريقه المستقيم الذي من استقام عليه فقد استقام على سواء السبيل، فهي قُرة العيون، وحياةُ القلوب، ولذةُ الأرواح، وبها الحياة، والغذاء، والدواء والنور، والشفاء، والعصمة، وكل خير في الوجود فإنما هو مستفاد منها، وحاصل بها، وكل نقص في الوجود فسببه من إضاعتها، ولولا رسوم قد بقيت لخربت الدنيا وطوي العالم، وهي العصمة للناس وقوام العالم، وبها يمسك الله السماوات والأرض أن تزولا، فإذا أراد الله ﷻ خَرابَ الدنيا وطيّ العالم رفع إليه ما تبقى من رسومها، فالشريعة التي بعث الله بها رسوله هي عمود العالم، وقطب الفلاح والسعادة في الدنيا والآخرة»[1].

وقال ـ عليه رحمة الله ـ في موضع آخر: «الحمد لله الذي نزه شريعته عن التناقض والفساد، وجعلها كفيلة وافية بمصالح خلقه في المعاش والمعاد، وجعلها من أعظم آياته الدالة عليه، ونصبها طريقاً مرشداً لمن سلكه إليه، فهو نوره المبين، وحصنه الحصين، وظله الظليل، وميزانه الذي لا يعول، لقد تعرّف بها إلى ألبَّاء عباده غاية التعرف، وتحبب بها إليهم غاية التحبب، فأنسوا بها منه حكمته البالغة، وتمت بها عليهم منه نعمه السابغة، ولا إله إلا الله الذي في شرعه أعظم آية تدل على تفرده بالإلهية، وتوحده بالربوبية، وأنه

(١) إعلام الموقعين لابن القيم ٣/٣.

Black plate (49,1)

الموصوف بصفات الكمال، المستحق لنعوت الجلال، الذي له الأسماء الحسنى، والصفات العلى وله المثل الأعلى، فلا يدخل السُوء في أسمائه، ولا النقصُ والعيبُ في صفاته، ولا العبثُ ولا الجورُ في أفعاله، بل هو منزهٌ في ذاته وأوصافه وأفعاله وأسمائه عما يضاد كماله بوجه من الوجوه، تبارك اسمه، وتعالى جده، وبهرت حكمته وتمت نعمته، وقامت على عباده حجته.

والله أكبر كبيراً أن يكون في شرعه تناقض واختلاف، فلو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً، بل هي شريعةٌ مؤتلفةُ النظام، متعادلةُ الأقسام، مبرأةٌ من كل نقص، مطهرةٌ من كل دنس، مسلمةٌ لاشية فيها، مؤسسةٌ على العدل والحكمة، والمصلحةُ والرحمةُ قواعدها ومبانيها، فهي صراطه المستقيم الذي لا أمت فيه ولا عوج، وملته الحنيفية السمحة التي لا ضيق فيها ولا حرج، بل هي حنيفية التوحيد، سمحة العمل، لم تأمر بشيء فيقول العقل لو نهت عنه لكان أوفق، ولم تنه عن شيء فيقول الحجى لو أباحته لكان أرفق، بل أمرت بكل صلاح، ونهت عن كل فساد، وأباحت كل طيب، وحرمت كل خبيث، فأوامرها غذاء ودواء، ونواهيها حمية وصيانة، وظاهرها زينة لباطنها وباطنها أجمل من ظاهرها، شعارها الصدق وقوامها الحق، وميزانها العدل وحكمها الفصل، لا حاجة بها البتة إلى أن تكمل بسياسة ملك أو رأي ذي رأي، أو قياس فقيه، أو ذوق ذي رياضة، أو منام ذي دين وصلاح، بل لهؤلاء كلهم أعظم الحاجة إليها، ومن وفق منهم للصواب فلاعتماده وتعويله عليها، فقد أكملها الذي أتم نعمته علينا بشرعها قبل سياسات الملوك، وحيل المتحيلين وأقيسة القياسيين، وطرائق الخلافيين، وأين كانت هذه الحيل والأقيسة، والقواعد المتناقضة، والطرائق القدد وقت نزول قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]؟

وأين كانت يوم قوله ﷺ: **«لقد تركتكم على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك»**[1]، وقوله ﷺ: **«ما تركت من شيء**

(١) رواه ابن ماجه ١/ ٥٠ رقم (٤٣)، وأحمد ٣٥/ ٧ رقم (١٦٥١٩)، والحاكم ١/ ٣٢١ رقم (٣٠٣)، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم (٤٣٦٩).

Black plate (50,1)

يقربكم من الجنة ويباعدكم عن النار إلا أعلمتكموه[١]»[٢][٣].

ومهما قال القائلون في وصف الإسلام الحنيف ورسالته الخالدة.

وشريعته الغراء فلن يبلغوا عشر معشار ما وصفه به رب العزة ﷻ إذ هو منشئه ومصدره ومنزله، فهو أعلم به علم إحاطة وشمول يناسب علمه المحيط الذي لا يمكن أن تدركه البشرية جمعاء ولا أن تحيط به عقولها القاصرة.

لقد وصفه جل جلاله ووصف كتابه ـ القرآن الكريم أصل الدين الإسلامي الأول وقطب رحاه ـ بجملة من الصفات العامة التي يفنى الزمان ولا تستطيع أن تحيط بكنهها العقول.

وإليك طائفة من هذه الصفات نزجيها على سبيل التمثيل لا الحصر:

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾﴾ [النساء: ١٧٤، ١٧٥].

وقال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۗ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾ [المائدة: ١٥ ـ ١٦].

---

(١) رواه عبد الرزاق في مصنفه ١١/ ١٢٥ ولفظه: «إلا قد بينته لكم»، ولم أقف على صحته.

(٢) إعلام الموقعين لابن القيم ٣/ ٢٠٦، ٢٠٧.

(٣) وروي نحوه عن النبي ﷺ أنه قال: «**إنه ليس شيء يقربكم إلى الجنة إلا قد أمرتكم به وليس شيء يقربكم إلى النار إلا قد نهيتكم عنه.**» رواه ابن أبي شيبة ٨/ ١٢٩، وعبد الرزاق في مصنفه ١١/ ١٢٥، والبيهقي في شعب الإيمان ٢٦/ ٣١٠ رقم (٩٩٨٩) واللفظ له، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ٦/ ٨٦٥ رقم (٢٨٦٦).

Black plate (51,1)

وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام: ١٥٣].

وقال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩].

وقال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الروم: ٣٠].

وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾ [الشورى: ٥٢ ـ ٥٣].

يمثل الإسلام للمجتمع المسلم ولكل فرد فيه العقائد الصحيحة، والقيم الفاضلة، والمبادىء الشريفة، والأخلاق النبيلة، والشرائع الميسرة الطاهرة، فالإسلامُ إذن قوام شخصية المجتمع المسلم، وحقيقة هويته، ومصدر شرفه وفضيلته، وسبب كرامته، وطريق حريته من عبودية الناس بإخلاص العبودية، وما من منهج في الأرض يحقق هذه الخاصيّات لمعتنقيه سوى الإسلام العظيم.

Black plate (52,1)

التحديات التي يواجهها الإسلام داخلياً وخارجياً

منهج الإسلام الكامل الشامل العظيم يتعرض لتحديات كثيرة في مسيرة الحياة تحديات من داخل المجتمع الإسلامي نفسه، وتحديات من خارج المجتمع الإسلامي، فأما التحديات من داخل المجتمع الإسلامي فتتجسم في الخروج والتمرد عليه جزئياً أو كلياً افتياتاً عليه واتباعاً للأهواء الجامحة والجهالات المردية.

وأما التحديات التي من خارج المجتمع فتتمثل في المحاولات المستمرة والمستميتة من أعدائه للقضاء عليه بإثارة الشبهات والشكوك حوله، ورميه بأبشع التهم، وطعنه بسهام الحقد والكراهية، وأبشع ألوان الطعون، ومن ثمّ كان الإسلام الحنيف ـ ومنذ نزل ـ في معركة دائمة، ومستمرة، ومتجددة، ومستميتة، ومتعددة الجوانب في كل زمان ومكان.

Black plate (53,1)

احتياج الإسلام إلى من يواجه به التحديات الداخلية والخارجية

الإسلام محتاج إلى من يحفظه وينقله وينشره في داخل المجتمع الإسلامي عبر الأجيال، فيعمل على ترسيخ عقائده وسيادة مبادئه ونشر تعاليمه لينفذ إلى القلوب، فيحرك المشاعر، ويفجر في روح المؤمن تلك الطاقة الحية العالية التي تشده شداً محكم الأواصر إلى عقيدته الحقة النيّرة وشريعته الكاملة القويمة، وتعمق فيه روح الولاء لأمته القائدة الرائدة التي أكرمها الله ﷻ بهذه الرسالة الهادية، فحين يتلاقى العقل والقلب، والفكر والشعور، على فهم الإسلام، ووعي قضيته، والولاء لأمته، والتفاعل مع مبادئه ونظمه وحين يكون ذلك الفهم والوعي والولاء والتفاعل عميقاً قوياً شاملاً فلا بد أن تنبثق من ذلك روح جديدة تتسم بالإيمان الصادق، والعمل المستمر، والعزيمة القوية، وبذلك تتجدد ثقة المسلمين بمهمتهم القيادية الكبرى، وتتلاشى عوامل الانهزام الفكري والنفسي، وتزول أعراض الشعور بالنقص، وشيوع الضعف والخور، والإخلاد إلى الراحة والاستكانة إلى المتاع العاجل والتعلق بالأهواء والشهوات، والخضوع لسلطة الأقوياء، والانبهار بحضارة الأعداء، وتتقدم من جديد جذوة الكفاح الصامد لنشر الدعوة، ومواجهة التحدي، وقيادة الركب الحضاري النيّر الذي فتح العقول والقلوب، ورفع لواء الكرامة والعدالة والحرية، وبسط راية العلم والمعرفة والسلام في أرجاء المعمورة[١].

والدين الإسلامي محتاج إلى من ينقله وينشره خارج المجتمعات

(١) كتاب لمحات في الثقافة الإسلامية لعمر عودة الخطيب ص٦، ٧.

Black plate (54,1)

الإسلامية، فيعمل على تعميم نوره، وبث ضيائه في الآفاق باعتبار الدعوة العامة الخالدة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

والدين الإسلامي محتاج إلى من يعمل على رد الشبهات عنه، وإحباط المكائد التي تحاك ضده من أعدائه، وبخاصة في الميدان الفكري والثقافي لأن أعداء الإسلام في كل عصر يحاولون بكل ما في صدورهم من حقد، وما في وسائلهم من كيد، وما في رؤوسهم من مكر أن يُقصوا الناس عن الهدى، ويصرفوهم عن الإيمان، ويدفعوهم في مسالك الضلال، وطرق الشر، ومهاوي الرذيلة، ودروب الغواية.

إنهم لا يحقدون على شيء كما يحقدون على هذه العقيدة الحقة النيرة التي تحرر الفكر والوجدان، وتطهر القلوب، وتزكي النفوس، وتصحح التصورات، وتقوّم الأوضاع، وتخرج العباد من عبادة العباد إلى عبادة الله الواحد الذي لا شريك له، كما تخرج البشر من أسر الطغيان، وجور النظم البشرية الفاسدة، وتشويه العقائد الزائغة إلى آفاق الحرية والكرامة والعدالة والاستقامة في ضوء شريعة الإسلام الخالدة.

وأعداء الإسلام يعرفون أنهم لا سبيل لهم إلى التسلط والاستبداد والسيطرة على زمام البشر لا سبيل لهم إلى ذلك، ما دام لهذا الدين بعقيدته وتشريعه وأخلاقه ونظمه وجود قوي، وكيان مكين ودولة وسلطان، ولذلك فإنهم يقذفون بكل قوتهم في المعركة التي يديرونها لتحطيم الإسلام، والقضاء على دعوته، وتشويه رسالته، وتدمير قوته، وتمزيق دولته[1].

ولقد شاء الله ﷻ لهذا المنهج الإلهي القيم القويم وهو الإسلام الحنيف كما جاء به محمد ﷺ شاء الله ﷻ ألا يتحقق في الأرض وفي دنيا الناس إلا بالجهد البشري، وفي حدود الطاقة البشرية، فلا يتحقق منه شيء بمعجزة خارقة.

وإنما يتحقق بأن تحمله جماعة من البشر تؤمن به إيماناً كاملاً، وتستقيم

(١) كتاب لمحات في الثقافة الإسلامية لعمر عودة الخطيب ص١١٨ بتصرف.

Black plate (55,1)

عليه بقدر طاقتها، وتجتهد لتحقيقه في قلوب الآخرين، وفي حياتهم كذلك، وتجاهد لهذه الغاية بكل ما تملك، تجاهد الضعف البشري والهوى البشري في داخل النفوس، وتجاهد الذين يدفعهم الضعف والهوى إلى الظلم والوقوف في وجه الهدى والنور المبين.

ولا أدل على ما قلناه من قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ [البقرة: ٢٥١].

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ [الحج: ٤٠].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

Black plate (56,1)

علماء الإسلام هم وحدهم المعنيون لمواجهة التحديات الفكرية المناوئة للإسلام

من هُم الذين يحملون هذا الدين، ويؤمنون به، ويستقيمون عليه، ويجتهدون لتحقيقه في حياتهم وحياة غيرهم، إنهم في المقام الأول العلماء وأعني بهم العلماء الذين يؤمنون بهذا المنهج إيماناً جازماً، ويؤمنون بأحقيته في قيادة البشرية حيث لا يصلح لها سواه، ويعلمون طبيعة التحديات التي تواجهه، والآثار المدمرة المترتبة على هذه التحديات لو نجحت لا قدَّر الله، العلماءُ المتسلحون بأسلحة العلم حيث يعلمون أن غيرهم من المسلمين لا يملكون أن يفعلوا شيئاً لهذا المنهج الإلهي الكريم رغم ما يملكون من حماس دافق، فالعلماءُ هم الذين يحفظون علم هذا المنهج الإلهي المستمد من مصدريه العظيمين كتاب الله ﷻ وسنة النبي ﷺ، ثم ينقلونه للأجيال وينشرونه بين الناس.

والعلماءُ هم الذين يردون الغوي إلى الرشاد، والضال إلى الهدى والمنحرف إلى الصراط المستقيم.

والعلماءُ هم الذين يدفعون عن المنهج الإسلامي الرشيد تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين.

والعلماءُ هم الذين يقفون حصناً منيعاً، وسداً متيناً في وجه الظلم والإلحاد والزندقة والفساد بشتى صوره وأشكاله وألوانه.

Black plate (57,1)

وظيفة العلماء في المجتمعات الإسلامية

العلماء هم الذين يحفظون على المجتمعات الإسلامية عقلها مخافة أن تزل أو تزيغ أو تتيه في أودية الضلال وما أكثرها من أودية.

وهم الذين يحفظون على المجتمعات الإسلامية نورها حتى لا يخبو ولا ينطفىء فتعيش في دياجير الظلام الحالك.

وهم الذين يحفظون على الأمة صراطها المستقيم حتى لا تتشعب بها السبل التي تبعدها عن صراط الله.

وهم الذين يحفظون على المجتمعات الإسلامية شخصيتها وهويتها حتى لا تميع ولا تذوب.

وهم الذين يحفظون على الأمة ضميرها حتى لا يلوث ولا يدنس بأدناس الحياة، وبالجملة فهم الذين يحفظون على الأمة عزتها، وكرامتها وحريتها، وشرفها، وسائر قيمها المتمثلة في منهجها العظيم.

هذه هي وظيفة العلماء والأمانة الغالية التي ناطها الله ﷻ بأعناقهم، وهذا قدرهم وحظهم في هذه الحياة، وبسبب القيام بها فضّلهم، وشرّفهم، وكرّمهم، وأعزّهم، ولو لم يكن في ذلك سوى قوله ﷺ: «**وإن العالِم ليستغفر له من في السماوات ومن في الأرض حتى الحيتان في الماء، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب، وأن العلماء ورثة الأنبياء**»[(١)].

أقول: لو لم يرد في فضل العلماء سوى هذا النص من النبي ﷺ لكفى،

(١) رواه أبو داود ١٠/ ٤٩ رقم (٣١٥٧)، والترمذي ٩/ ٢٩٦ رقم (٢٦٠٦)، وابن ماجه ١/ ٢٥٩ رقم (٢١٩)، وأحمد ٤٤/ ١٩٢ رقم (٢٠٧٢٣)، وابن حبان ١/ ١٧١ رقم (٨٨)، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم (٦٢٩٧).

Black plate (58,1)

فانظر كيف كرّم الله ﷻ العلماء العاملين بعلمهم تكريماً لا يسامى ولا يدانى حينما يتصور أن كل شيء في الكون يستغفر لهم، كل حصاة وكل حجر، وكل حبة وكل ورقة، كل زهرة وكل ثمرة، كل نبتة وكل شجرة، كل حيوان وكل إنسان، وكل حشرة زاحفة، وكل دابة دراجة في الأرض، وكل سابحة في الماء، وكل سارحة في الهواء، وكل ساكنة في السماء، كل هذه وغيرها تستغفر للعلماء العاملين.

وحينما يتصور أنهم أفضل بمراحل كثيرة من العباد المنقطعين للعبادة، وحينما يتصور أنهم ورثة الأنبياء أفضل خلق الله وأقربهم إلى الله ﷻ فأعظم بها رتبة، وأكرم بها منزلة.

Black plate (59,1)

الإسلام يهيب بالعلماء أن يقوموا بوظيفتهم

لقد أهاب الإسلام بالعلماء أن يقوموا بوظيفتهم في توعية المجتمع الإسلامي وتعليمه والحفاظ على مقدساته، والذود عنها ضد المغيرين والمفسدين، أهاب بهم أن يقوموا بهذه الوظيفة خير قيام، وبيّن لهم أنهم إن فعلوا ذلك فهم في أرقى منزلة وأسمى مكانة عند الله ﷻ قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [فصلت: ٣٣].

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾﴾ [الأعراف: ١٧٠].

والإسلام الحنيف يدفع العلماء دفعاً إلى ممارسة وظيفتهم هذه بطرق متعددة منها ما يلي:

أولاً: أوجب عليهم العمل على نشر العلم وبذله وعدم الضنّ به، وبيّن لهم الأجر الجزيل الذي ينتظرهم عن ذلك:

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [فصلت: ٣٣].

وعن سهل بن معاذ بن أنس عن أبيه أن النبي ﷺ قال: «**من علّم علماً فله أجر من عمل به لا ينقص من أجر العامل بشيء**»(١).

وعن أبي أمامة رضي الله عنه قال: ذُكر لرسول الله ﷺ رجلان أحدهما عابد والآخر عالم، فقال عليه الصلاة والسلام: «**فضلُ العالم على العابد كفضلي**

(١) رواه ابن ماجه ١/٢٧٩ رقم (٢٣٦) وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب ١ رقم (٩٥٩).

Black plate (60,1)

على أدناكم»، ثم قال ﷺ: **«إن الله وملائكته وأهل السماوات والأرض، حتى النملة في جحرها، وحتى الحوت ليصلون على معلم الناس الخير»**[١].

وعنه رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: **«من غدا إلى المسجد لا يريد إلا أن يتعلم خيراً أو يعلمه كان له كأجر حاج تاماً حجته»**[٢].

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«نضّر الله امرءاً سمع منا شيئاً فبلغه كما سمعه، فرب مبلغ أوعى من سامع»**[٣].

وعن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«نضَّر الله امرءاً سمع منا حديثاً فحفظه حتى يبلغه فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه ورب حامل فقه ليس بفقيه»**[٤].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً»**[٥].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه ـ أيضاً ـ أن رسول الله ﷺ قال: **«وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده»**[٦] والأحاديث في ذلك كثيرة جداً.

---

(١) رواه الترمذي ٩/٢٩٩ رقم (٢٦٠٩)، وقال: حديث حسن صحيح، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٢١٣).
(٢) رواه الطبراني في الكبير ٧/٩٩ رقم (٧٣٤٦) بإسناد لا بأس به، وخرجه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب ١ رقم (٨٦)، وقال: حديث حسن صحيح.
(٣) رواه أبو داود ١٠/٧٦ رقم (٣١٧٥)، والترمذي ٩/٢٥٩ رقم (٢٥٨١)، وابن حبان ١/١٣٦ رقم (٦) وقال الترمذي: حديث حسن صحيح، وخرجه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب ١ رقم (٨٩) وقال: حديث حسن صحيح.
(٤) رواه أبو داود ٣/٣٢٢ رقم (٣٦٦٠)، والترمذي ٥/٣٣ رقم (٢٦٥٦) وحسنه، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب ١/ ٩٠.
(٥) رواه مسلم، كتاب العلم ١٣/١٦٤ رقم (٤٨٣١).
(٦) رواه مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ١٣/٢١٢ رقم (٤٨٦٧).

Black plate (61,1)

ثانياً: أوجب عليهم القيام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وحث على ذلك في آيات كثيرة من كتاب الله ﷻ وأحاديث كثيرة من سنة النبي ﷺ، قال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [آل عمران: ١٠٤].

وقال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وقال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾ [التوبة: ٧١].

وقال ﷺ: «**من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان**»(١).

ثالثاً: وعدهم بالنصر والتأييد والهداية والتوفيق بمقتضى علمه وحكمته، قال تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [العنكبوت: ٦٩].

إلى غير ذلك من الآيات.

رابعاً: رهبهم وخوفهم من كتم العلم والضن به، أو القعود عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لما يترتب على كل ذلك من الفساد الفردي والاجتماعي في المجتمع:

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ ۙ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾﴾ [البقرة: ١٥٩، ١٦٠].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ

(١) رواه مسلم، كتاب الإيمان ١/١٦٧ رقم (٧٠).

Black plate (62,1)

ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ ۚ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ﴿١٧٥﴾﴾ [البقرة: ١٧٤، ١٧٥].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ [آل عمران: ١٨٧].

وهذه الآية الكريمة وإن كان الكلام فيها عن أهل الكتاب إلا أن فيها كما يقول الإمام ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «تحذير للعلماء أن يسلكوا مسلكهم فيصيبهم ما أصابهم، ويسلك بهم مسلكهم؛ فعلى العلماء أن يبذلوا ما في أيديهم من العلم النافع الدال على العمل الصالح، ولا يكتموا منه شيئاً، فقد ورد في الحديث المروي من طرق متعددة عن النبي ﷺ أنه قال: **«من سُئل عن علمٍ فكتمه أُلجم يوم القيامة بلجام من نار»**[(١)].

وقال ﷺ: **«والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً منه ثم تدعونه فلا يستجاب لكم»**[(٢)].

وروى قيس بن أبي حازم عن أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: يا أيها الناس إنكم تقرءون هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ۚ﴾ [المائدة: ١٠٥]، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك الله أن يعمهم بعقاب منه»**[(٣)].

---

(١) رواه أبو داود ١٠/٧٣ رقم (٣١٧٣)، وابن ماجه ١/٣٠٨ رقم (٢٦٠)، وأحمد ١٥/ ٢٩٦ رقم (٧٢٥٥)، ورواه الحاكم بنحوه وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ١/٣٣٥ رقم (٣١٥)، والطبراني في الكبير ٧/٣٩٢، والبيهقي في شعب الإيمان ٤/٢٦٦ رقم (١٧٠٢)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب ١ رقم (١٢٠).

(٢) رواه الترمذي ٨/ ٧٥ رقم (٢٠٩٥)، وحسنه الألباني في جامع الترمذي ٤/٤٦٨ رقم (٢١٦٩).

(٣) رواه الترمذي ٨/ ٧٣ رقم (٢٠٩٤)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ٤/٨٨ رقم (١٥٦٤).

Black plate (63,1)

خامساً: أن العلماء مسئولون لا محالة عن علمهم الذي علمهم الله ﷻ إياه، واستحفظهم عليه لأداء واجبهم تجاه مجتمعاتهم الإسلامية ودينهم الحنيف، أحفظوا أم ضيعوا؟ أدُّوا أم فرَّطوا؟.

قال رسول الله ﷺ: «**لا تزول قدما عبد حتى يسأل عن عمره فيما أفناه وعن علمه فيم فعل به، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وعن جسمه فيما أبلاه**»(١).

وعنه ﷺ قال: «**يجاء بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق أقتابه في النار فيدور كما يدور الحمار برحاه فيجتمع أهل النار عليه فيقولون أي فلان ما شأنك؟ أليس كنت تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر؟ قال: كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه وأنهاكم عن المنكر وآتيه**»(٢).

وكان أبو الدرداء رضي الله عنه يقول: «إن أخوف ما أخاف إذا وقفت على الحساب أن يقال لي: قد علمت، فماذا عملت فيما علمت»(٣).

(١) رواه الترمذي ٨/٤٤٣ رقم (٢٣٤١)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب ١ رقم (١٢٦).
(٢) رواه البخاري، كتاب بدء الخلق ١١/٤٦ رقم (٣٠٢٧).
(٣) جامع بيان العلم وفضله ١/٢.

Black plate (64,1)

الإسلام يهيب بالمجتمعات الإسلامية أن تحافظ على علمائها

هذا من جهة العلماء، أما من جهة المجتمعات الإسلامية فقد أفهمها الإسلام أن علماءها هم سبب رشادها، ونجوم هدايتها، وأنهم إن فُقِدوا صارت المجتمعات الإسلامية في ظلام حالك السواد، فإما وجود العلماء العاملين، وإما الضلال والانحراف وسوء المصير.

روي عن أبي موسى رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً فكان منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير وَكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا وأصابت منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلم ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به**»(١).

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يبق عالماً اتخذ الناس رؤوساً جهالاً فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا**»(٢).

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: «موت ألف عابد قائم الليل صائم النهار أهون من موت عالم بصير بحلال الله وحرامه»(٣).

---

(١) رواه البخاري، كتاب العلم ١/ ١٤١ رقم (٧٧).
(٢) رواه البخاري، كتاب العلم ١/ ١٧٦ رقم (٩٨)، ومسلم، كتاب العلم ١٣/ ١٦٠ رقم (٤٨٢٨).
(٣) إحياء علوم الدين ١/ ١١.

Black plate (65,1)

وكان الحسن البصري رحمه الله يقول: «موت العالم ثلمة في الإسلام لا يسدها شيء ما طرد الليل والنهار»(١).

ومن ثمّ أوصى الإسلام المجتمعات الإسلامية بجملة من الوصايا قبل علمائها منها ما يلي:

أولاً: يوجب الإسلام الحنيف أن يكون في المسلمين هذا الصنف من العلماء ضرورة لوجودهم، وضرورة لحياتهم في شرف وعزة وكرامة، وضرورة لنجاتهم في الآخرة، وذلك بالترغيب في طلب العلم والحث عليه، ومدح العلماء والثناء عليهم، مثل قوله تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١].

وقوله تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾ [آل عمران: ١٨].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨].

وقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢].

وقوله ﷺ: **«من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين»**(٢).

ومن أجمع الأحاديث وأروعها في هذا الباب حديث أبي الدرداء رضي الله عنه المشهور الذي يقول فيه سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«من سلك طريقاً يبتغي فيه علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضاً بما يصنع، وإن العالم ليستغفر له من في السماوات ومن في الأرض حتى الحيتان في الماء، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً،**

(١) جامع بيان العلم وفضله ١/١٥٣.

(٢) رواه البخاري، كتاب العلم ١/١٢٦ رقم (٦٩)، ومسلم، كتاب الزكاة ٥/٢٤١ رقم (١٧٢١).

Black plate (66,1)

وإنما ورثوا العلم، فمن أخذه فقد أخذ بحظ وافر»[١].

إلى غير ذلك من الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة، وذلك كله حرصاً على توفر هذا الصنف من العلماء الذين يعملون على توعية المجتمع الإسلامي وإمساك نوره وهداه وروحه عليه.

ثانياً: يوجب الإسلام على المجتمعات الإسلامية المحافظة على علمائها وإجلالهم وتوقيرهم واحترامهم، ويحذر من الاستخفاف بهم أو الزراية عليهم، أو إضاعتهم وعدم المبالاة بهم.

عن عبادة بن الصامت ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«ليس من أمتي من لم يجل كبيرنا، ويرحم صغيرنا، ويعرف لعالمنا حقه»**[٢].

وعن أبو موسى الأشعري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن من إجلال الله إكرام ذي الشيبة المسلم، وحامل القرآن غير الغالي فيه والجافي عنه، وإكرام ذي السلطان المقسط»**[٣].

ثالثاً: يوجب سؤالهم فيما أشكل، والرد إليهم فيما خفي، خوفاً من الزيغ والضلال، قال تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣].

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣].

وروى ابن عباس ﷺ عن النبي ﷺ: **«أن عيسى عليه السلام قال: إنما الأمور ثلاثة: أمر يتبيّن لك رشده فاتبعه، وأمر يتبيّن لك غيه فاجتنبه، وأمر اختلف فيه**

---

(١) رواه أبو داود ١٠/ ٥٠ رقم (٣١٥٨)، والترمذي ٩/ ٢٤٣ رقم (٢٥٧٠)، وابن ماجه ١/ ٢٥٩ رقم (٢١٩)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٢٩٧).

(٢) رواه أحمد ٤٦/ ٢٣٩ رقم (٢١٦٩٣)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم (٥٤٤٣).

(٣) رواه أبو داود ١٢/ ٤٧٣ رقم (٤٢٠٣)، وحسنه الألباني في سنن أبي داود ٤/ ٢٦١ رقم (٤٨٤٣).

Black plate (67,1)

فردّه إلى عالم»[١].

رابعاً: يوجب طاعتهم وعدم مخالفتهم ما دامت في حدود طاعة الله ﷻ ورسوله ﷺ، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ٥٩﴾ [النساء: ٥٩].

قال الإمام ابن القيم رحمه الله: «قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما في إحدى الروايتين عنه، وجابر بن عبد الله، والحسن البصري، وأبو العالية، وعطاء بن أبي رباح، والضحاك، ومجاهد في إحدى الروايتين عنه ﴿أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ﴾ هم العلماء، وهو إحدى الروايتين عن الإمام أحمد وقال أبو هريرة وابن عباس رضي الله عنهم في الرواية الأخرى، وزيد بن أسلم، والسدي، ومقاتل: هم الأمراء وهو الرواية الثانية عن أحمد.

والتحقيق أن الأمراء إنما يطاعون إذا أمروا بمقتضى العلم، فطاعتهم تبع لطاعة العلماء، فإن الطاعة إنما تكون في المعروف وما أوجبه العلم، فكما أن طاعة الأمراء تبع لطاعة العلماء، فإن الطاعة إنما تكون في المعروف وما أوجبه العلم، فكما أن طاعة العلماء تبع لطاعة الرسول فطاعة الأمراء تبع لطاعة العلماء. .اهـ»[٢].

ولو قيل: إنها تشمل العلماء والأمراء لكان أولى.

(١) رواه الطبراني في الكبير بسند لا بأس به ٩/١٩٥ رقم (١٠٦٢٣)، وقال الألباني في ضعيف الترغيب والترهيب: ضعيف جداً ١ رقم (١١٦).
(٢) إعلام الموقعين لابن القيم ١/٣٧.

Black plate (68,1)

ما يجب على العلماء حتى يؤدوا وظيفتهم على الوجه الأكمل

لما يترتب على تفريط العلماء من انحراف العامة وضلال الأمة كان إثمهم أعظم، ووزرهم أكبر وأخطر، وعذابهم أشد وأبقى، لذلك قال ﷺ موضحاً مصير المفرطين من العلماء، وما ينتظرهم من سوء العاقبة وعذاب الآخرة: «**يظهر هذا الدين حتى يجاوز البحار وحتى تخاض بالخيل في سبيل الله، ثم يأتي أقوام يقرءون القرآن، فإذا قرؤوه قالوا قد قرأنا القرآن، فمن أقرأ منا؟ من أعلم منا؟ ثم التفت إلى أصحابه فقال: هل ترون في أولئك من خير؟ قالوا: لا، قال: فأولئك منكم وأولئك من هذه الأمة، وأولئك هم وقود النار**»(١).

لذلك فمن اللازم للعلماء لكي يؤدوا وظيفتهم على أكمل الوجوه وأحسنها أن يكونوا في أعلى مستوى من الصلاح في خاصّة أنفسهم وفي سلوكهم بين الناس، ولن يتأتى لهم ذلك إلا إذا تحلّوا بجميع الفضائل جملة، وتخلُّوا عن جميع الرذائل جملة، وإذا كان هذا الأمر واجباً على كل مسلم، فهو في حق العلماء ألزم وأوجب؛ لأنهم الأئمة والقدوة في كل عصر ومصر، وفي كل زمان ومكان ـ والناس تبع لهم ينظرون إليهم على أنهم الهداة المرشدون إلى الطريق المستقيم، ويحلونهم من قلوبهم محلاً رفيعاً، إذا قالوا أصغوا إليهم بآذانهم، ووعت عنهم قلوبهم، وحكت عنهم ألسنتهم، وهم بهم مقتدون.

---

(١) رواه أبو يعلى ١٣/ ٤٤٠ رقم (٦٥٥٦)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ٧ رقم (٣٢٣٠).

Black plate (69,1)

ومن ثمّ كان لصلاح العلماء أكبر الأثر في صلاح الناس، ولفسادهم كذلك أكبر الأثر في فسادهم، وقد أُثرت عن الصحابة والتابعين روايات كثيرة بهذا المعنى.

فقد روي عن مالك رحمه الله أنه قال: قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «اعلموا أنه لا يزال الناس مستقيمين ما استقامت لهم أئمتهم وهداتهم»(١).

وروي عن سفيان الثوري رحمه الله أنه قال: «الله قراء، وللشيطان قراء، وصنفان إذا صلحا صلح الناس؛ السلطان والقراء»(٢).

وكان يقول أيضاً: «الأعمال السيئة داء، والعلماء دواء، فإذا فسد العلماء فمن يشفي الداء»(٣).

يجب إذاً أن يكون العلماء على أعلى مستوى من الصلاح في أنفسهم وفي سلوكهم بين الناس حتى يتحقق فيهم الإمامة والقدوة، ويؤدوا وظيفتهم على أكمل الوجوه وأحسنها، يجب أن ينضح علم الإسلام على سلوكهم وأخلاقهم وأقوالهم وأفعالهم هدىً وتقى وزهداً وتواضعاً وعفة وورعاً وسكينة وخشوعاً ووقاراً بحيث يظهر كل ذلك في هيئتهم وسيرتهم، وسرهم وعلانيتهم، وسكونهم وحركتهم، ونطقهم وسكوتهم حتى يُعرفوا بسيماهم، وحتى يكبر العلم الذي يحملونه في أعين الناس عندما يرون أثره في هؤلاء العلماء، فيكونون لهم سامعين طائعين.

كل خلق فاضل دعا إليه الإسلام فهو في حق العلماء أوجب، وكل خلق سيء نهى عنه الإسلام، فالنهي في حق العلماء آكد، ونريد هنا أن نؤكد فقط على بعض الصفات المهمة جداً للعلماء حتى يقوموا بوظيفتهم، وحتى تؤتي جهودهم ثمارها.

---

(١) جامع بيان العلم وفضله ١/ ١٨٥.
(٢) حلية الأولياء ٧/ ٩.
(٣) حلية الأولياء ٧/ ٦.

Black plate (70,1)

أولاً: الإخلاص والتجرد لله ﷻ:

ومعنى الإخلاص: تجريد العمل لله ﷻ بحيث لا يريد به الإنسان شيئاً آخر سوى مرضاته ﷻ لا يريد به المحمدة عند الناس، ولا يريد به الحياة، ولا يريد به المنصب، ولا يريد به المال، ولا يريد به الرئاسة والشرف، بل يريد به وجه الله ﷻ أولاً وأخيراً وجه الله سبحانه فحسب.

ومن المعروف أن الله ﷻ قد أوصى عباده جميعهم العلماء منهم وغير العلماء بهذا الوصف في جميع أعمالهم، وبيّن لهم أنه لن تقبل منهم طاعة من الطاعات إلا إذا توفر فيها الإخلاص والتجرد.

قال تعالى: ﴿فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ﴾ [الزمر: ٢، ٣].

وقال سبحانه: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ۝٥﴾ [البينة: ٥].

كما بيَّن لهم ـ جل جلاله ـ أن عدم الإخلاص في أي طاعة من الطاعات يهبط بها، بل ويجعلها معصية شائنة لا ينال صاحبها منها إلا الفشل والخسار بعد التعب في تحصيلها والكد في أدائها.

قال تعالى: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلۡمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ ۝٥ ٱلَّذِينَ هُمۡ يُرَآءُونَ ۝٦ وَيَمۡنَعُونَ ٱلۡمَاعُونَ ۝٧﴾ [الماعون: ٤ ـ ٧].

وقال ـ جل جلاله ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ عَلَيۡهِ تُرَابٞ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ﴾ [البقرة: ٢٦٤].

وفي آية جامعة عامة يقول سبحانه: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فِيهَا وَهُمۡ فِيهَا لَا يُبۡخَسُونَ ۝١٥ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝١٦﴾ [هود: ١٥، ١٦].

وهكذا كل عمل ديني أخروي يقصد به الدنيا لا يكون لصاحبه أدنى

Black plate (71,1)

نصيب من الأجر، بل ينقلب معصية عليه وزرها ووبالها لأنه غلف عمل الدنيا بغلاف الآخرة، وقد قال ﷺ: «**بشر هذه الأمة بالتيسير والسناء والرفعة في الدين والتمكين في البلاد والنصر، فمن عمل منهم بعمل الآخرة للدنيا فليس له في الآخرة من نصيب**»(١).

وهذه الأحكام العامة عامة وشاملة في العلماء وغير العلماء، ولكن الإسلام لم يقف عند هذا الحد ـ ولو وقف لكان في ذلك كفاية وبلاغ ـ ولكنه خص العلماء في هذا الموضوع بجملة من الوصايا توجب إخلاص عملهم لله ﷻ، والتحذيرات من عدم الإخلاص والتجرد، فإن في ذلك وبالاً عليهم وأي وبال!!.

ونكتفي بأن نسوق هنا بيان الحافظ الجليل ابن رجب الحنبلي ـ عليه رحمة الله ـ ففيه كفاية عن غيره.

قال رحمه الله: «طلب الشرف والعلو على الناس بالأمور الدينية كالعلم والعمل والزهد أفحش من طلبها بالولاية والسلطان والمال، وأقبح وأشد فساداً وخطراً، فإن العلم والعمل والزهد، إنما يطلب به ما عند الله من الدرجات العلى والنعيم المقيم، ويطلب بها ما عند الله والقرب منه والزلفى لديه.

قال الثوري رحمه الله: إنما يُطلبُ العلم ليتقي الله به، فمن ثمّ فضل، لولا ذلك لكان كسائر الأشياء.

فإذا طلب بشيء من هذا عرض الدنيا الفاني فهو أيضاً نوعان:

أحدهما: أن يطلب به المال، فهذا من نوع الحرص على المال وطلبه بالأسباب المحرمة، وفي هذا الحديث عن النبي ﷺ: «**من تعلم علماً مما**

(١) رواه أحمد ٤٣/ ٢٣٤ رقم (٢٠٢٧٦)، وابن حبان ٢/ ٣٠٠ رقم (٤٠٦)، والحاكم ١٨/ ٢٦٧ رقم (٨٠٠٩)، والبيهقي في شعب الإيمان ١٤/ ٣٥٨ رقم (٦٥٦٦)، وقال الحاكم: صحيح الإسناد، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب ١ رقم (٢٣).

Black plate (72,1)

يبتغى به وجه الله لا يتعلمه إلا ليصيب به عرض الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة» يعني ريحها[١].

وسبب هذا والله أعلم أن في الدنيا جنة معجلة، وهي معرفة الله ومحبته والأنس به، والشوق إلى لقائه وخشيته وطاعته، والعلم النافع يدل على ذلك.

فمن دله علمه على دخول هذه الجنة المعجلة في الدنيا دخل الجنة في الآخرة، ومن لم يشم رائحتها لم يشم رائحة الجنة في الآخرة.

ولهذا كان أشد الناس عذاباً في الآخرة عالم لم ينفعه الله بعلمه، وهو أشد الناس حسرة يوم القيامة حيث كان معه آلة يتوصل بها إلى أعلى الدرجات وأرفع المقامات، فلم يستعملها إلا في التوصل إلى أخس الأمور وأدناها وأحقرها.

فهو كمن كان معه جواهر نفيسة لها قيمة فباعها ببعرة أو شيء مستقذر لا ينتفع به، فهذا حال من يطلب الدنيا بعلمه.

وأقبح من ذلك من يطلبها بإظهار الزهد فيها، فإن ذلك خداع قبيح جداً.

والثاني: من يطلب بالعلم والعمل والزهد الرياسة على الخلق، والتعاظم عليهم، وأن ينقاد الخلق ويخضعون له، ويصرفون وجوههم إليه، وأن يظهر للناس زيادة علمه على العلماء ليعلو به عليهم، ونحو ذلك، فهذا موعده النار لأن قصد التكبر على الخلق محرم في نفسه.

فإذا استعمل فيه آلة الآخرة كان أقبح وأفحش من أن يستعمل فيه آلات الدنيا من المال والسلطان.

وفي السنن عن النبي ﷺ: **«من طلب العلم ليجاري به العلماء أو**

---

(١) رواه أبو داود ١٠/ ٨٢ رقم (٣١٧٩)، وابن ماجه ١/ ٢٩٤ رقم (٢٤٨)، وأحمد ١٧/ ١٤٥ رقم (٨١٠٣)، والحاكم ١/ ٢٧٧ رقم (٢٦٤) وقال: صحيح على شرط البخاري ومسلم، وابن حبان ١/ ١٥٢ رقم (٧٨)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب ١ رقم (١٠٥).

Black plate (73,1)

ليماري به السّفهاء أو يصرف به وجوه الناس إليه أدخله الله النار»[١]، وفي رواية: **«فهو في النار»**[٢].

وعن جابر ﷺ عن النبي ﷺ قال: **«لا تعلموا العلم لتباهوا به العلماء، ولا تماروا به السفهاء، ولا تخيروا به المجالس، فمن فعل ذلك فالنار النار»**[٣].

وعن ابن مسعود ﷺ قال: «لا تعلموا العلم لثلاث: لتماروا به السفهاء، أو لتجادلوا به الفقهاء، أو لتصرفوا به وجوه الناس إليكم، وابتغوا بقولكم وفعلكم ما عند الله فإنه يبقى ويفنى ما سواه»[٤].

وعن أبي هريرة ﷺعن النبي ﷺ قال: **«إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه... وذكر منهم: ورجل تعلم العلم وعلّمه، وقرأ القرآن، فأتي به فعرّفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلمت العلم وعلمته، وقرأت فيك القرآن، قال: كذبت! ولكنك تعلمت العلم ليقال عالم، وقرأت القرآن ليقال هو قارئ، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار»**[٥] اهـ[٦].

أقول: ومما ورد في ذلك أيضاً من الأحاديث الشريفة ما روي عن أبي سعد بن أبي فضالة ﷺ عن النبي ﷺ قال: **«إذا جمع الله الناس يوم القيامة ليوم لا ريب فيه نادى مناد من كان أشرك في عمل عمله لله أحداً فليطلب ثوابه**

---

(١) رواه الترمذي ٩/ ٢٥٥ رقم (٢٥٧٨)، وحسنه الألباني في جامع الترمذي ٥/ ٣٢ رقم (٢٦٥٤).
(٢) رواه ابن ماجه ١/ ٢٩٥ رقم (٢٤٩)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٦٣٨٢).
(٣) رواه ابن ماجه ١/ ٢٩٦ رقم (٢٥٠)، وابن حبان ١/ ١٥١ رقم (٧٧)، والبيهقي ٤/ ٢٩٠ رقم (١٧٢٥)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب ١ رقم (١٠٧).
(٤) رواه الدارمي في سننه ١/ ٢٨٨ رقم (٢٦١).
(٥) رواه مسلم، كتاب الإمارة ١٠/ ٩ رقم (٣٥٢٧).
(٦) عن كتاب شرح حديث: «ذئبان جائعان...» لابن رجب الحنبلي، وهو مدرج ضمن كتاب جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر ١/ ١٧٥، ١٧٦، ط دار الكتب العلمية، بيروت ١٣٩٨هـ.

Black plate (74,1)

من عند غير الله فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك»[١].

ثانياً: موافقة الأعمال والأحوال والأقوال:

دلالة صدق العالم عند الناس فيما يدعوهم إليه، وما يوصيهم به، ويحثهم عليه هي أن تكون أفعاله وأحواله مطابقة لأقواله ووصاياه، فلا يكذب فعله قوله، ولا يخالف باطنه ظاهره، وبعبارة أخرى لا يأمر بمعروف إلا كان أول آخذ به، ولا ينهى عن منكر إلا كان أول منته عنه، حينئذ فقط يؤثر في الناس، ويستميلهم إلى ما يريد، أما إن كذب فعله قوله، وخالف باطنه ظاهره، وأمر بمعروف لا يفعله، ونهى عن منكر وهو ملوث به متلطخ فيه، فأنى يستجاب لقوله؟ وكيف يتأثر به الناس؟.

إن ذلك أمر أشبه بالمحال؛ لأنه أصبح موضع الشك والارتياب، وانتفت عنه ثقة الناس، فلا تجاوز كلماته صماخ الآذان بل يصبح ويمسي كمن يصبح في واد، وينفخ في رماد، ولا أثر لقوله ولا متأثر به، وحقاً ما قال مالك بن دينار رَحِمَهُ اللَّهُ: «إن العالم إذا لم يعمل بعلمه زلت موعظته عن القلوب، كما يزل القطر على الصفا»[٢].

إن شر ما يمنى به الإسلام حقاً هو أولئك الذين يأمرون بخير ويتركونه وينهون عن شر ويفعلونه، فأقوالهم أقوال الصديقين، وأفعالهم أفعال الشياطين، ورضي الله تعالى عن الإمام علي بن أبي طالب حينما قال: «قصم ظهري رجلان: عالم متهتك، وجاهل متنسك، فالجاهل يغر الناس بتنسكه، والعالم يغرهم بتهتكه»[٣].

أجل؛ فإن دعوة العلماء إلى الخير والمخالفة عنه في سلوكهم هي الآفة التي تصيب الناس بالشك والارتياب لا في الدعاة وحدهم، ولكن فيما يدعون

---

(١) رواه الترمذي ١٠/ ٤٢٩ رقم (٣٠٧٩)، وحسنه الألباني في سنن الترمذي ٥/ ٣١٤ رقم (٣١٥٤).

(٢) هداية المرشدين ص٩٠.

(٣) هداية المرشدين ص٩٤.

Black plate (75,1)

إليه وهو الإسلام الحنيف أيضاً لأنهم يسمعون قولاً جميلاً، ويشهدون فعلاً قبيحاً فتتبلبل أفكارهم، وتتملكهم الحيرة بين القول الجميل والفعل القبيح، وبالتالي يبدأ فقدهم للثقة في العلماء أولاً ثم فيما يدعون إليه ويمثلونه ثانياً.

لقد استنكر الإسلام أشد الاستنكار أن يقول الإنسان ما لا يفعله، وقبّح هذا الخلق وهذه الصفة أشد تقبيح، وتوعد على ذلك أشد العقاب، يقول ﷻ مخاطباً علماء بني إسرائيل وأحبارهم في أسلوب تقريع وتوبيخ واستنكار لما اتصفوا به من انفكاك بين قول الخير والبرّ وفعله من أنفسهم: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [البقرة: ٤٤]، ويقول ﷻ في بعض المؤمنين الذين تشبهوا بأولئك: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾﴾ [الصف: ٢، ٣].

وعن النبي ﷺ قال: **«أتيت ليلة أسري بي على قوم تقرض شفاههم بمقاريض من نار فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟، فقال: هؤلاء خطباء أمتك الذين يقولون ما لا يفعلون، ويقرءون كتاب الله ولا يعملون به»**(١).

وعن أسامة بن زيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«يجاء بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق أقتابه في النار، فيطحن فيها كطحن الحمار برحاه، فيجتمع أهل النار عليه فيقولون: أي فلان ما شأنك؟ أليس كنت تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر؟ قال: كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه وأنهاكم عن المنكر وآتيه»**(٢).

وإنما كانت مخالفة أفعال العلماء لأقوالهم محل هذا الاستنكار وسبب هذا التعذيب لأنهم عصوا ربهم عن علم وإصرار، ولكونهم قدوة الناس فقد عصى بمعاصيهم خلق كثير، إذ كانوا بمواقفهم هذه سبباً للجرأة على

(١) رواه البيهقي ١٠/٤٦٣ رقم (٤٧٥٧)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب ١ رقم (١٢٥).

(٢) رواه البخاري، كتاب بدء الخلق ١١/٤٦ رقم (٣٠٢٧)، ومسلم، كتاب الزهد والرقائق ١٤/٢٦١ رقم (٥٣٠٥).

Black plate (76,1)

حرمات الله والتفلت من هدى الله، فهم بهذا أئمة ضلال في أزياء المتقين وشياطين رحماء في ملابس المتنسكين!!

وفيهم يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «علماء السوء جلسوا على باب الجنة يدعون إليها الناس بأقوالهم، ويدعونهم إلى النار بأفعالهم، فكلما قالت أقوالهم للناس: هلموا، قالت أفعالهم: لا تسمعوا منهم، فلو كان ما دعوا إليه حقاً كانوا أول المستجيبين له، فهم في الصورة أدلاء، وفي الحقيقة قطاع طرق»(١).

ثالثاً: الشجاعة الأدبية:

يجب أن يكون العلماء على حظ كبير جداً من الشجاعة الأدبية أو المعنوية بمعنى أن يجهروا بالحق، وينطقوا بالصدق لا يخافون إلا الله ﷻ ولا يرجون سواه، هدفهم وغايتهم ومنتهى أملهم سيادة الحق أعني سيادة الإسلام وهيمنته على كل ما سواه، سواء في ذلك رضي كل الناس، أو سخط كل الناس، وسواء في ذلك عاش حياته سعيداً قرير العين أو شقياً لا يقر له قرار، فقد أوقف حياته على الدعوة إلى الله، ونذر نفسه لمرضاة الله ونصرة دينه الحنيف.

وليس معنى ذلك أن يبدأ العالم الناس بالمخاشنة والمغالظة بأمر بعيد عن وظيفته في نشر الإسلام والرد عنه فيثير حفائظهم، ويوقد أحقادهم ويلهب غضبهم، وإنما معناه أن يجهر بالحق مخلصاً لوجه لله، فإن وافقه الناس في الحق الذي دعاهم إليه فبها ونعمت، وإن خالفوه وعاندوه ثبت على حقه حتى ولو عادوه لذلك وكرهوه ونصبوا له، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾﴾ [الأحزاب: ٣٩].

ولقد كان النبي ﷺ يربي أصحابه على الجهر بالحق في إخلاص وأدب مهما كان ثمن ذلك الجهر.

---

(١) هداية المرشدين ص٩٢.

Black plate (77,1)

كان ﷺ يبايع أصحابه ويوصيهم ألا يدعوا إعلان الحق والجهر به ما دام في مصلحة سيادة الحق وانتشار الخير والفضيلة، وإزالة ومحق الشر والرذيلة حتى ولو ضحى الإنسان في ذلك بماله أو بجاهه أو بنفسه أو بكل ذلك دفعة واحدة.

روى عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: «بايعنا رسول الله ﷺ .... وعلى أن نقول بالحق أينما كنا لا نخاف في الله لومة لائم»(١).

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: «أمرني خليلي ﷺ بسبع... ومنها قوله: وأمرني أن أقول بالحق وإن كان مراً، وأمرني أن لا أخاف في الله لومة لائم..»(٢).

كما كان النبي ﷺ يعتبر كلمة الحق الشجاعة في وجه الطغيان أعظم أنواع الجهاد، فقد سأله أحد الصحابة قائلاً: يا رسول الله أي الجهاد أفضل؟ فقال ﷺ: «**كلمة حق عند سلطان جائر**»(٣).

كما يعتبر أن من تحقير الإنسان نفسه وإذلالها وإهانتها أن يرى أمراً يستطيع فيه أن يعلن بالحق ثم لا يفعل مخافة الناس!!.

كما يبين ﷺ في جملة أحاديث أن الجهر بالحق لا يبعد نفعاً قدره الله ﷻ للإنسان، ولا يجلب شراً لم يقدره الله ﷻ عليه، فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قام خطيباً، فكان فيما قال: «... **ألا لا يمنعن رجلاً هيبة الناس أن يقول بحق إذا علمه**»، فبكى أبو سعيد وقال: قد والله رأينا أشياء فهبنا»(٤).

---

(١) رواه البخاري، كتاب الأحكام ٢٢/ ١٤٠ رقم (٦٦٦٠)، ومسلم، كتاب الإمارة ٩/ ٣٧٣ رقم (٣٤٢٦).

(٢) رواه أحمد ٤٣/ ٤١٣ رقم (٢٠٤٤٧)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ٥/ ١٩٩ رقم (٢١٦٦).

(٣) رواه النسائي ١٣/ ١٢١ رقم (٤١٣٨)، وصححه الألباني في سنن النسائي ٧/ ١٦١ رقم (٤٢٠٩).

(٤) رواه ابن ماجه ١٢/ ١١ رقم (٣٩٩٧)، وصححه الألباني في سنن ابن ماجه ٢/ ١٣٢٨ رقم (٤٠٠٧).

Black plate (78,1)

وهكذا يجب أن يكون العلماء حتى يؤدوا الأمانات التي وضعها الله ﷻ في أعناقهم وناطها بهم على الوجه الأفضل المطلوب.

رابعاً: الصبر على الأذى:

من المعروف أن العالم يدعو إلى الأخذ بدين الله ﷻ والتمسك بشرعه القويم، ومن المعروف كذلك أن الناس جميعاً ليسوا على دين واحد، ولا على طريقة واحدة ولا على مذهب واحد، وإنما يختلفون أدياناً ومذاهب وطرائق، ومن هنا فإن العالم سوف يلاقي الأمرين في وظيفته!!.

سوف يلاقي الكافر والمشرك والملحد والزنديق والمنافق، وسوف يلاقي الباطل على أيديهم يتبجح، والشر ينتفش، والرذيلة تستشري، وسوف يلاقي الأذى يصيبه من كل هذه الجهات، وبمختلف الوسائل، وسوف يلاقي العالم أيضاً ممن لم ينالوا من التربية والعقل ما يؤهلهم لأن يدركوا مقاصده ويفهموا أفكاره فيعارضوه عن جهل، مصرين على التمسك بما وجدوا عليه آباءهم من قبل ولو كانوا على غير هدى أو ضلال مبين.

وسوف يلاقي من يقفون له بالمرصاد فيعارضونه في أفكاره، ويصادمونه في دعوته، ويقابلون كلامه بالسخرية والاستهزاء، ويتتبعون عوراته، ويتسقطون هفواته، وسوف يلاقي أيضاً الحاقدين والحاسدين الذين يتألمون أشد الألم إذا ارتفع واحد من الناس عنهم، ولا يجدون راحتهم إلا إذا أنزلوه من مكانته بالطعن عليه، والتشهير به، واختلاق الأكاذيب في حقه، والإزراء لطريقته.

وكل هؤلاء وأولئك قد يعارضون العالم بالباطل، ويثيرون من حوله الزوابع والأعاصير، فإذا لم يتسلح بضبط النفس، وقوة التحمل، والصبر على الأذى حتى يجعل تلك المكاره دبر أذنيه، ومواطىء نعليه فإنه سيضطرب، وينفعل انفعالاً يسد عليه مسالك تفكيره، ويقعده عن عمله ووظيفته، أو على الأقل يورثه البطء والتكاسل فيها، وعدم التحمس لها..!!

أما إذا صبر على الأذى، وراض نفسه على تحمله فإنه يستطيع أن يستمر

Black plate (79,1)

في دعوته، ويمضي بها قدماً بقلب ثابت ونفس مطمئنة، ولا شك أن النصر والظفر في النهاية لمن صابر وصبر.

لما حكى الله ﷻ قصة لقمان في القرآن الكريم بين أنه قرن الأمر بالصبر مع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧].

وما أمر لقمان ولده بالصبر عند أمره له بوجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا لعلمه بأن الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر لا بد أن يناله من الناس الأذى والعنت والمشقة، فلا بد له من الصبر الذي لا جزع معه ولا تردد ولا نكوص.

وعندما نطالع القرآن الكريم بتدبر وإمعان وروّية نجد أن الله ﷻ يوجه رسوله ﷺ إلى الصبر ويوصيه به ويحثه عليه، وخاصة في أوائل السور نزولاً تلك التي كان يربي الله ﷻ بها رسوله ﷺ لكي يقوم بالدعوة على أكمل الوجوه وأحسنها، ففي سورة المدثر وهي من أوائل السور نزولاً يقول سبحانه لرسوله ﷺ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ۝٧﴾ [المدثر: ١ ـ ٧].

وفي سورة المزمل يقول ﷻ بعد عدة توجيهات من أجل الدعوة: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ۝٨ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ۝٩ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ۝١٠﴾ [المزمل: ٨ ـ١٠].

وفي سورة الإنسان يقول ﷻ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ۝٢٣ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ۝٢٤﴾ [الإنسان: ٢٣ ـ ٢٤].

ويستمر هذا التوجيه الإلهي الكريم للرسول ﷺ حتى بعد أن يتحمل الأمانة الغالية أمانة التبليغ والدعوة يستمر في آيات كثيرة وفي مناسبات عديدة.

فمرَّة يطلب منه سبحانه ألا يستخفنَّه تكذيبهم إياه وإيذاؤهم له على عدم الصبر، بل عليه بالصبر موقناً بوعد الله إذ يقول سبحانه: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ۝٦٠﴾ [الروم: ٦٠].

Black plate (80,1)

ومرة ثانية يوصيه بألا يضيق صدره بمكر الماكرين، وكيد الكائدين وخيانة الخائنين، وإنما عليه أن يمضي في دعوته غير عابىء بهؤلاء ولا هؤلاء، فإنما يدعو لله ﷻ لا لنفسه، والله ﷻ هو الحافظ له من الماكرين والكائدين والخائنين، فيقول تعالى له: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ [النحل: ١٢٧].

وقد يقع عليه الأذى لامتحان صبره، ويبطىء عليه النصر لابتلاء ثقته بربه، ولكن العاقبة معروفة وهي ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [النحل: ١٢٨].

وكل ما هو موجه إلى الرسول ﷺ في هذا الموضوع، وبهذا الخصوص هو موجه أيضاً إلى العلماء الذين هم خلفاء الأنبياء وورثة الأنبياء وسائر الدعاة من أمة محمد ﷺ إلى يوم القيامة.

فلا يمكن أن يقوم بوراثة النبوة أحد إلا والصبر زاده وعتاده، والصبر جنته وسلاحه، والصبر ملجأه وملاذه، «**ومن يتصبر يصبره الله وما أعطي أحد عطاء خيراً وأوسع من الصبر**»(١).

هذه هي أهم الصفات التي يجب أن تتوافر في العلماء حتى يؤدوا واجبهم في توعية المجتمعات الإسلامية على الوجه الأكمل، والله تعالى هو الموفق والمعين، ولا حول ولا قوة إلا به جل جلاله.

(١) رواه البخاري، كتاب الزكاة ٥/٣١٨ رقم (١٣٧٦)، ومسلم، كتاب الزكاة ٥/ ٢٧٤ رقم (١٧٤٥).